كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

College of Sharia & Islamic Studies

مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Journal of College of Sharia & Islamic Studies

نصف سنوية – علمية محكمة

Academic Refereed – Semi-Annual

ISSN 5545 – 2305

المجلد ٣٣– العدد ٢ – خريف ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥ –٢٠١٦ م

Vol. 33– No.2, 2015–2016 A / 1437 H

من دلائل الخلق على عظمة الخالق

في ضوء سورة الواقعة – دراسة موضوعية

تأليف

د. مروان وحيد شعبان

الأستاذ المشارك في كلية الآداب والعلوم في الجامعة الكندية بدبي

تخصص: التفسير وعلوم القرآن

خلاصة البحث

تناول الباحث في هذا البحث الدلائل والبراهين التي استعرضتها سورة الواقعة، في بيان طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والبعث، وأشار البحث إلى أن الله جلّ جلاله ذكر هذه الأدلة تباعاً، فبدأ بالحديث عن طبيعة خلق الإنسان وبيان أصله، ثم تحدث عن الماء الذي أنزله الله تعالى من السماء بقدرته ورحمته، وأثره في إرواء الأحياء واستمرار الحياة، وكيف أن الله تعالى قادر على تغيير أوصافه وطبيعته، أو إذهابه وتجفيفه إن شاء، ثم تعرّض القرآن الكريم للحديث عن النبات والحرث والزرع، وقدرته تبارك وتعالى إن شاء أن يحول النبات الأخضر إلى هشيم وحطام لفعل، ثم الحديث عن دلائل القدرة الإلهية في إخراج النار من الشجر الأخضر، وذكر مواعظ النار وبعض منافعها.

وكان الباحث حريصاً على تتبع الأسلوب والمنهج القرآني في عرض هذه الأدلة وبيانها، وذكر أقوال علماء التفسير والعقيدة في أماكنها.

Research Summary

In this research the author has dealt with proofs and Evidences exposed by the Chapter Al Waqi3a (The happening), in showing the outstanding capability of the Divine power in creation and resurrection. This research points out that Allah Almighty has mentioned these proofs successively. Thus He started talking about the essence of the Human being and his origin, then He talked about the water that was brought down to earth by Allah Almighty from the skies with His power and mercy and its impact on quenching the thirst of living beings and on the continuation of life, and how that Allah is able to change its constituents and nature or to make it to disappear and to dry out, if He so wills. Then the Quran converged into to talking about the plants and their plowing and planting, and His (exalted be He) ability, to turn green plant to chaff and debris if He so wills.

مقدمه:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن اتبع هداهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين:
فإن سورة الواقعة من السورة المكية التي تعالج قضايا العقيدة الأساسية، وتقيم الأدلة وتنصب البراهين على عظمة الخالق سبحانه وتعالى في مخلوقاته، وعلى طلاقة قدرته جلّ جلاله في تنويع الخلق، وتصريف الرزق، وبث الحياة، وتقدير الموت.

وسورة الواقعة تبعث الخوف والرهبة في النفس حين تتحدث عن وقوع يوم القيامة، وما يصاحب ذلك الوقوع من أمور جسام، وأحداث عظام، حيث ترج الأرض وتزلزل زلزالها، وتتفتت الجبال تفتيتاً وتصير غباراً منتشراً متطايراً، وتذكر أحوال الناس يومئذ وأنواعهم فهم أصناف ثلاثة: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسّابقون، وتبيِّن ما أعدّ الله من نعيم مقيم جزاء عملهم الصالح، أو عذاب أليم يناسب كفرهم وعصيانهم وخروجهم عن أوامر ربهم وتكذيبهم بيوم الدين.

أهداف البحث:

١- تقديم دراسة قرآنية موضوعية جديدة في التفسير الموضوعي، الذي يعد مجالاً خصباً للباحثين في التفسير وعلوم القرآن، وذلك أن دراسات العلماء القدامى كانت تنصب على أنواع أخرى من التفاسير، كالتفسير التحليلي والمأثور وغير ذلك.

٢- سيكون مدار بحثنا حول الأدلة التي ساقها القرآن الكريم، في معرض إثبات خالقية الله عز وجل للكون، وتفرّده تبارك وتعالى في الخلق والإيجاد، بهدف بناء العقيدة السليمة، وترسيخ الإيمان الخالص في نفس المسلم.

٣- تلمس أسلوب القرآن الكريم البليغ البديع، الذي يخاطب النفس البشرية – وهو يتناول هذه الحقائق والدلائل الإيمانية – بطريقة سهلة ميسورة يدرك كنهها ومضمونها العالم والعابد، والمثقف والعامي، والصغير والكبير.

٤- تتبع المنهج القرآني في عرض المشاهد الكونية المألوفة المحسوسة في دنيا البشر، وكشف أسرارها المكنونة، كخلق الأجنّة من منيٍ يُمنى، وزرع الأرض وحرثها من أبسط الحبوب وأصغرها، وفي نزول المطر الذي سقى الله تبارك وتعالى به العباد وجعله مادة الحياة، وفي النار التي يوقدونها ويستدفئون بها، ويستعملونها في مناحٍ حياتية شتى.

٥- التدليل على أن هذه المشاهد الكونية التي ألفها الناس وعايشوها، "النسل، والزرع، والماء، والنار" يجعل منها القرآن الكريم قاعدة صلبة، تنهض عليها ركائز الإيمان في النفس البشرية، فتعزز اليقين بأن خالقها ومبدعها هو الله تبارك وتعالى.

الدراسات السابقة والجديد في البحث:

لم تُفرد – حسب علمي واطلاعي – دراسة موضوعية حول دلائل الخلق التي عرضتها سورة الواقعة، بحيث تكون مستقلة شاملة لهذه الدلائل، إلا ما كان من تفسير لسورة الواقعة في كتب التفسير في سياق تفسير القرآن الكريم، أو استدلال لبعض آيات السورة في أماكن متفرقة من كتب التفسير وعلوم القرآن والعقيدة.

لذلك فقد منّ الله تبارك وتعالى عليّ بإفراد هذه الدراسة المستقلة لدلائل الخلق في سورة الواقعة، فقمت بتقييد المادة العلمية من مصادرها المعتبرة، ثم رتبتها ترتيباً منهجياً في إطار عناوين محددة، ورفدتها بالنصوص والأدلة بما يتناسب مع سياقها الموضوعي، مع إضافات ومناقشات علمية، جعلت من البحث دراسة موضوعية متكاملة جديدة، ولله الحمد والمنّة.

منهج البحث:

ارتكز البحث أساساً على منهجي الاستقراء والمقارنة، حيث تتبعت الآيات القرآنية المباركة، التي تتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية في ضوء آيات سورة الواقعة التي ندرسها، ثم قمت بجمعها وفرزها ودراستها حسب مواضيعها، مقارناً ومدعماً آيات بحثنا بغيرها من نصوص التنزيل الكريم.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: تناولت في المقدمة مقصد سورة الواقعة، وبيّنت أهداف البحث، وأشرت إلى الدراسات السابقة والجديد فيه، وأوضحت المنهج الذي اتبعته وسرت عليه.

المبحث الأول: دلائل خلق الإنسان وبعثه.

المطلب الأول: منهج القرآن في إثبات خلق الإنسان.

المطلب الثاني: مفهوم المني وطبيعته.

المطلب الثالث: منهج القياس في الدلالة القرآنية.

المبحث الثاني: دلائل الخلق في الحرث والزرع.

المطلب الأول: الفرق بين الحرث والزرع.

المطلب الثاني: الحرث والزرع في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: الاستدلال القرآني في النبات على عظمة الخالق تبارك وتعالى

المبحث الثالث: دلائل الخلق في الماء.

المطلب الأول: الاستدلال القرآني على أن الماء سبب الحياة.

المطلب الثاني: طلاقة القدرة الإلهية في إذهاب الماء وتحويل أوصافه.

المبحث الرابع: دلائل الخلق في الشجر والنار.

المطلب الأول: الاستدلال بإخراج النار من الشجر.

المطلب الثاني: عِظةُ النار.

المطلب الثالث: منافع النار.

الخاتمة: تضمّنت خلاصة البحث وأهم النتائج، والجديد الذي توصلت إليه... وأرجو اللهَ تبارك وتعالى الإخلاص والقبول، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

مقاصد سورة الواقعة:

إن معظم مقصود السورة: ظهور واقعة القيامة، وأصناف الخلق، بالإضافة الى العذاب والعقوبة، وبيان حال السّابقين بالطّاعة، وبيان حال قوم يكونون متوسّطين بين أهل الطّاعة، وأهل المعصية، ويذكر حال أصحاب الشمال، والغرقى في بحر الهلاك، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع، وحديث الماء والنار، وما ضمنهما من النعمة والمنّة، ومن المصحف وقراءته في حالة الطهارة، وحال المتوفّى في ساعة السّكرة، وذكر قوم بالبشارة، وقوم بالخسارة،

والشهادة للحق سبحانه بالكبرياء والعظمة[١]، ويمكن تلخيص مقاصد السورة بالآتي:

١- التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه.
٢- وصف ما يعرض وهذا العالم الأرضي عند ساعة القيامة.
٣- صفة أهل الجنة وبعض نعيمهم.
٤- صفة أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث. وإثبات الحشر والجزاء
٥- الاستدلال على إمكان الخلق الثاني بما أبدعه الله من الموجودات بعد أن لم تكن.
٦- الاستدلال بدلائل قدرة الله تعالى.
٧- الاستدلال بنزع الله الأرواح من الأجساد والناس كارهون لا يستطيع أحد منعها من الخروج، على أن الذي قدر على نزعها بدون مدافع قادر على إرجاعها متى أراد على أن يميتهم.
٨- التأكيد على أن القرآن منزل من عند الله، وأنه نعمة أنعم الله بها عليهم فلم يشكروها وكذبوا بما فيه[٢].

المبحث الأول: دلائل خلق الإنسان وبعثه:

نثبت في بداية البحث الآيات الكريمة من سورة الواقعة، التي سنتناولها في الدراسة إلى أربعة مباحث وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ

---

(١) الفيروز آبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، ج ١، ص٤٥١، وانظر: الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، (ط١) ص٥٤٩.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ، ط (١) ج ٢٧، ص٢٨٠.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾. (سورة الواقعة: الآيات، ٥٧ – ٧٤).

ولْنبدأ بالمبحث الأول الذي يتناول دلائل عظمة الخالق عز وجل في خلق الإنسان وبعثه، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾. (سورة الواقعة: الآيات،٥٧ –٦٢).

يتصدر هذا النص القرآني الشريف قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي نحن الذين أوجدناكم من عدم، وخلقناكم من غير عجز ولا نصب، فلماذا لا تصدقون بالبعث والحشر؟ أليس الذي أوجدكم من عدم، وخلقكم وصوّركم بقادر على أن يعيد بعثكم، ويجمع أشتاتكم لساحة الجزاء والحساب؟ بلى إنه تبارك وتعالى قادر على كل شيء.

ذلك لأن إحياء الموتى ما هو إلا إعادة لبناء الإنسان الذي تفتت أجزاؤه وتهدمت أركانه، ولا شك أن ترميم أي شيء وإعادته من جديد إلى صورته الأولى، أيسر بكثير من إيجاده من العدم، وهذا من المسلّمات الواضحة، ولذلك سِيقت الآية القرآنية مساق الخبر: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ ومساق تقرير الخبر، بلا توطئة وبلا مقدمات، لأنها قضية لا يماري فيها العقلاء، فليس هناك من مخلوق إلا وقدرة الله تبارك وتعالى أوجدته..

يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري في الآية الكريمة: يقول تعالى ذكره لكفار قريش والمكذّبين بالبعث: نحن خلقناكم أيها الناس ولم تكونوا شيئًا، فأوجدناكم بشراً، فهلا تصدّقون من فعل ذلك بكم في قيله لكم: إنه يبعثكم بعد مماتكم وبِلاكم في قبوركم، كهيأتكم قبل مماتكم[1].

ويبيّن الحافظ ابن كثير أن الآية الكريمة جاءت في سياق إثبات الأدلة الواضحة على يوم البعث، ورد شُبه المنكرين له فيقول: يقول تعالى مقرراً للمعاد، ورداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من

(١) الطبري،محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، (ط١)، ج ٢٣، ص١٣٦.

الذين قالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة الصافات: الآية، ١٦)، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، فلهذا قال: {فلولا تصدقون} أي: فهلا تصدقون بالبعث[1].

المطلب الأول: منهج القرآن في إثبات خلق الإنسان:

يسلك القرآن الكريم منهجاً مضطرداً في إثبات قضية البعث وإحياء الموتى، وذلك من خلال حضّ الناس وحثهم على الاحتكام إلى عقولهم، وما تعارفوا عليه من مسلّمات عقلية لا يشك فيها العقلاء، وأن يضعوا قضية البعث والحياة الآخرة في ميزان العقل السليم، متحررين من قيود العصبية ورواسب البيئة، وقتئذٍ ستقودهم عقولهم إلى مراتع الإيمان والتصديق والتوحيد، والآيات التي نحن بصدد دراستها تجسّد هذا المنهج القرآني الفريد: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾. (سورة الواقعة: الآيات،٥٧ –٦٢).

في هذه الآيات الكريمة خطاب موجّه للعقل السليم كي يقرّ ويعترف بخالقية الله عز وجلّ للإنسان، وذلك عن طريق التأمل والتفكر في الماء الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة، فمن الذي خلق مادة الحياة هذه؟ ومن الذي خلق منها الإنسان، وصوّره، وخلق هيكله، وأعضائه، ونفخ فيه من روحه؟.

إن وظيفة الرجل لا تتعدى أن يلقي الماء في رحم المرأة، ثم يتوقف دور الرجل والمرأة على حدٍ سواء، والله تبارك وتعالى هو الذي يخلق، ويقدر، ويصوّر، ثم يهدي.

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م، (ط٢)، ج ٧، ص٥٣٩، وانظر:الماتريدي،محمد بن محمود ، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، (ط١)، ج ٩، ص٤٩٩.

يصف الإمام القرطبي المنهج القرآني في حضّ المشركين على تحكيم عقولهم في قضية الخلق والبعث فيقول: هذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى، أي إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث[1].

المطلب الثاني: مفهوم المني وطبيعته:

لفظة "المني" في اللغة تعني: التقدير، يقول الراغب الأصفهاني: المِنَى: التّقدير، يقال: مَنَى لك الماني، أي: قدّر لك المقدّر، ومنه: المِنَا الذي يوزن به فيما قيل، والمِنِيُّ للذي قدّر به الحيوانات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ ،(سورة القيامة، الآية، ٣٧) وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ (سورة النجم: الآية، ٤٦) أي: تقدّر بالعزّة الإلهية[2]، والمِنِيُّ: هو ماء الرّجل من شهوته الذي يكون منه الولد[3].

ثم يدلل الله عز وجلّ على حقيقة الخلق والموت واستبدال الخلائق إذا شاء جل جلاله فيقول: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: نحن قضينا به بينكم وكتبناه عليكم وقسّمناه ووقّتنا موت كل أحد بوقت معيّن، حسبما تقتضيه مشيئتنا، وما نحن بمسبوقين ولا عاجزين ولا مغلوبين ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: على أن نذهبكم ونأتي مكانكم أشباهكم من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلق والصور والأطوار التي لا تعرفونها ولا تعهدونها والمراد: ونحن قادرون على ذلك أيضاً[4].

---

(١)القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، (ط٢)، ج ١٧، ص٢١٦.

(٢)الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، دار القلم، ١٤١٢ هـ، (ط١)،ص ٧٧٩.

(٣)الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ج ٨، ص٣٩٠.

(٤)مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م – ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م، (ط١)، ج ٩، ص١٢٦٠.

ومن بديع استدلال القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة ونظائرها، أنه يذّكر الإنسان بأصل خلقه وضعف خلقه — من ماء مهين – ليقرره بعد ذلك بعظمة الخالق وإفراده بالتوحيد والعبودية.

المطلب الثالث: منهج القياس في الدلالة القرآنية:

بطريقة القياس العقلي يدلل القرآن الكريم على النشأة الآخرة والبعث بدليل النشأة الأولى والخلق، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية، قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى[1].

وهنا لا بد من عرض منهج القرآن الكريم في الاستدلال على بعث الإنسان بعد موته – في هذه الدراسة الموضوعية – وهو أسلوب قرآني متفرّد في إقامة الحجج وإثبات البراهين المقنعة على البعث والنشور، ويمكن عرض منهج استدلال القرآن على البعث بالنشأة الأولى، من خلال آيتين كريمتين:

١– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (سورة يس: الآيات، ٧٧– ٧٩).

هذه الآيات الكريمة، فيها ذِكرُ شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتمّ جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً يفيده اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشبّ، وتمّ عقله واستتب، ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق، من باب أولى...فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ

(١)المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م، (ط١)، ج ٢٧، ص١٢٦.

مَرَّةٍۢ﴾ وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة مرة ثانية، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

ومعنى الكلام: التعجُّب مِنْ جهل هذا المخاصِم في إنكاره البعث والمعنى: ألا يَعلم أنه مخلوق فيتفكر في بدء خلقه فيترك خصومته؟! وقيل: هذا تنبيه له على نعمة الله عليه حيث أنشأه من نطفة فصار مجادلاً، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ في إنكار البعث بالعَظْم البالي حين فتَّه بيده، وتعجَّب ممن يقول: إن الله يُحْييه وَنَسِيَ خَلْقَهُ أي: نَسِيَ خَلْقَنا له، أي: ترك النَّظر في خَلْق نفسِه إذ خلق من نطفة قالَ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ أي: بالية... فقاس هذا الكافر قُدرة الله تعالى بقُدرة الخَلْق، فأنكر إحياء العظم البالي لأن ذلك ليس في مقدور الخَلْق،﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ﴾ أي: ابتدأ خَلْقها أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ من الابتداء والإعادة عَلِيمٌ[2].

٢- قال تعالى: **قَالَ**﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ (سورة مريم: الآيات، ٦٦-٦٧).

أوضح الحافظ ابن كثيربيان وجه الدلالة من الآية المباركة فقال: يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً[3].

أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة؟، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعاً واختراعاً لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى

---

(١)السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م، (ط١)، ص٦٩٩.

(٢) الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٢ هـ، (ط١)، ج ٣، ص٥٣٤، وانظر: الشوكاني، محمد بن علي بن عبد الله، فتح القدير، دمشق، دار ابن كثير، ١٤١٤ هـ، (ط١)، ج ٤، ص٤٤٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص٢٢٢.

فكانت كالمثال لها[١]، ومنهجية القرآن في الاستدلال على البعث بالتنبيه إلى الخلق، هي نوع من أنواع العلاج النفسي لهذه الطائفة من الناس، ذلك أن منكري البعث قد ألفوا الماديات التي يتعاملون معها يومياً، حتى حجبتهم عن التفكّر في أصل الخلق، وعن محاولة التفكير في عوالم أخرى تتخطى العالم المادي، فتأتي الآيات القرآنية لتقشع سحب الغفلة عن نفوسهم، وتثير في مكامنهم ضرورة البحث والتقصي في بداية الخلق، حتى يقيسوا الإعادة على البداية ليصلوا إلى الحق والإيمان.

والآيات القرآنية في هذا الصدد كثيرة، ولسنا في معرض شرحها وبيانها واستجلاء مواطن الشاهد فيها، فمردّ هذا إلى كتب التفسير...

المبحث الثاني: دلائل الخلق في الحرث والزرع:

قال تعالى:﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.(سورة الواقعة: الآيات، ٦٣-٦٧).

ترد هذه الآيات المباركة في سياق بيان عظمة الخالق تبارك وتعالى في خلقه، وهي صورة أخرى من صور دلائل الخلق، ودليل ساطع على بعث الإنسان بعد موته، فبعد أن دلل القرآن الكريم على إعادة خلق الإنسان، وقدرة الله تبارك وتعالى على بعثه وحشره بدليل أنه خلقه من العدم، ساق هذا الدليل الآخر في الإطار ذاته.

إن عملية إنبات النبات وإخراج الحبّ من الأرض، عملية مشاهدة أمام أنظار الناس، حيث يلقون الحَب في الأرض بعد حرثها، ثم يجدونه بعد ذلك نباتاً زاهياً، وشجراً باسقاً، وزرعاً يحمل السنابل والحبوب، فمن الذي خلق هذه الحبوب التي كانت أساس الاستنبات؟ ومن الذي فجّر البراعم الخضراء من داخلها لتكون زروعاً وحدائق ذات بهجة؟

(١) انظر: القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، تحقيق: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، صيدا، المكتبة العصرية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ج ٨، ص١٨٤، بتصرف يسير.

إن دور الناس يقف عند إلقاء البذور في جوف التراب، تماماً كما توقف دور الرجل والمرأة بعد قذف المني في الرحم، والله تبارك وتعالى يخلق معجزة الحياة، فيصوّر الله عز وجل الإنسان ويخلقه في أحسن تقويم، كما يصور النبات بأنواعه وأصنافه في أروع تخليق.

ولو شاء الله تبارك وتعالى لما نبت هذا الزرع، ولتعفّن وفسد ومات، ولو شاء الله جل جلاله لجعله عقيماً لا يطلع زهراً، ولا يثمر ثمراً، ولو شاء سبحانه وتعالى لأيبسه قبل استوائه واستحصاده، ولو شاء لجعله هشيماً متكسراً لشدة يبسه، فظل الناس يعجبون مما نزل بهم، ويعجّب بعضهم بعضاً لذلك ويقولون: إنا لمعذبون، لا بل نحن محرمون غير مجدودين، لنحس طالعنا، وسوء حظنا، والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، والمحروم: الممنوع من الرزق، كما سيأتي في أقوال المفسرين.

المطلب الأول: الفرق بين الحرث والزرع:

الحرث هو عملية إلقاء البذور وتهيئة الأرض، والزرع مراعاته وإنباته، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ فأثبت لهم الحرث، ونفى عنهم الزرع.

يقول الإمام القرطبي: هذه حجة أخرى، أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك؟ وإنما منكم البذر وشق الأرض، فإذا أقررتم بأن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟! وأضاف الحرث إليهم، والزرع إليه تعالى، لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لا على اختيارهم[1].

ويبين الإمام الماوردي أن هذه الآية الكريمة تتضمن أمرين:

أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم.

(1) القرطبي، جامع البيان، ج ١٧، ص٢١٨.

الثاني: البرهان الموجب للاعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذوره وانتقاله إلى استواء حاله من العفن إلى الترتيب حتى صار زرعاً أخضر، ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من مات أحق وعليه أقدر[(١)].

ومعنى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تعجبون من هلاكه ويبسه بعد خضرته، أو تندمون على اجتهادكم فيه الذي ضاع وخسر، أو تفكهون على ما أصبتم لأجله من المعاصي، فتتحدثون فيه، والتفكه: التنقل بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتنقل بالحديث لأنه ذو شجون.

و﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ هو حال القائلين الذين يقولون: إنا لمغرمون، أي ملزمون غرامة ما أنفقنا، أو مهلكون لهلاك رزقنا، من الغرام: بمعنى الهلاك[(٢)].

المطلب الثاني: الحرث والزرع في القرآن الكريم:

الحرث والحراثة: العمل في الأرض زرعاً كان أو غرساً، وقد يكون الحرث الزرع نفسه[(٣)]، والحرث: هو إلقاءُ البَذْر في الأَرض وتهيئتها للزرع، ويسمى المحروث حَرْثاً، قال تعالى:﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢﴾، (سورة القلم: الآية، ٢٢)، وتُصُوّر منه العمارة التي تحصل عنه في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۝٢٠﴾ (سورة الشورى: الآية، ٢٠)، والدّنيا مَحْرَث للناس وهم حُرّاث فيها، وقد ورد في القرآن الكريم الحرث على ثلاثة أَوجه.

الأَول: بمعنى الزّرع المعهود، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾.

الثاني: بمعنى النساء، قال تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ (سورة البقرة: الآية، ٢٢٣).

---

(١) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ج ٥، ص٤٦٠.

(٢) انظر: القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ، (ط١) ج ٩، ص١٢٦.

(٣) المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، (ط١)، ج٣، ص٢٩٦.

الثالث: بمعنى منفعة الدّنيا وثواب الآخرة، قال تعالى:﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (سورة الشورى: الآية، ٢٠)، أَي ثوابها[١].

أما الزرع في القرآن الكريم:فقد قال الهروي: الزرع: نبات كل شيء يحرث، والله يزرعه أي ينميه حتى يبلغ غايته، ويقال للصبي: زرعه الله أي أنبته[٢]، والزرع: طرح البذر في الأرض، والزرع اسم لما نبت، والأصل في ذلك كله واحد[٣].

والحرث والزرع وما ينتج عنهما وردا في القرآن الكريم، في معرض الحديث عن قدرة الله تبارك وتعالى في خلقه، كما وردا في بيان إسباغ النعم والآلاء الربانية على العباد، من حيث تنوع المحاصيل الزراعية والأشجار والثمار، وتسخير ذلك للعباد.

المطلب الثالث: الاستدلال القرآني في النبات على عظمة الخالق:

المتتبع لآيات النبات القرآنية التي تتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية، في خلق عالم النبات ومملكة المزروعات والثمار، يجد تنوّعاً في عرض منهج القرآن الكريم، فتارة يستدل القرآن الكريم على قضية البعث بإحياء نبات الأرض بعد موتها، وتارة يستدل القرآن الكريم بتنوع أصناف النبات من زروع وثمار على عظمة الخالق عز وجل، وتارة يستدل القرآن الكريم بجمال النبات وبهجته على طلاقة القدرة الربانية، وغير ذلك من صور الاستدلال المبثوثة في صفحات القرآن الكريم، وسنقف عند بعض هذه الدلائل تباعاً.

أولاً: الاستدلال القرآني على قدرة الخالق على بعث الناس بإحياء نبات الأرض بعد موتها:

الآيات القرآنية في هذا الصدد عديدة منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾، (سورة

(١) انظر: الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج٢، ص٤٤٦.

[٢]الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، (ط١)، ج ٢، ص٧٩، وانظر: الأزدي، أبو بكر محمد بن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق، رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، (ط١)، ج ٢، ص٧٠٥.

[٣]الرازي، أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج ٣، ص٥١.

فصلت: الآية، ٣٩)، أي من دلائل قدرة الله تبارك وتعالى على إحياء الموتى، أَنك ترى الأَرض قد ذبُل ويبس نباتها، فإذا أنزل الله جل جلاله الماء عليها تحركت بالنبات، وانتعشت بالحياة، وارتفعت الزروع والأشجار من البذور، فأثمرت وأينعت وأطعمت الآكلين، بعد أَن كانت ميتة هامدة، إن الذي أَحياها على هذا النحو العجيب لمحيي الموتى، وباعثهم من أجداثهم، إنه على كل شيء قدير.

وهذا برهان محسوس من البراهين القاطعة على طلاقة القدرة الربانية في الإحياء بعد الإماتة، فالأرض القاحلة اليابسة المقفرة تتبدل أحوالها إلى أرض مثمرة معشبة خضراء، بمجرد أن تتلقى الأمر الإلهي بنزول الماء من السماء، وهذه معجزة بحد ذاتها تحار وتعجز الكائنات أمام عظمة الخالق فيها.

ويوضح الإمام الرازي منهج الاستدلال القرآني في الآية الكريمة، وذلك من خلال توضيحه إلى أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها، هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها فيقول: الخشوع: التذلل والتصاغر، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ أي تحركت بالنبات، وربت: انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ يعني أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها، ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ وهذا هو الدليل الأصلي وتقريره: إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضاً أمر ممكن لذاته، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه ألبتة، والله أعلم[1].

(١)الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٧، ص٥٦٧.

وإلى هذا المعنى أشار أئمة التفسير – قديماً وحديثاً –والآيات في هذا السياق كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ ﴾ (سورة فاطر: الآية، ٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١ ﴾ (سورة الزخرف: الآية، ١١).

وهذا الأسلوب القرآني البديع في الاستدلال مما يعرفه البشر وتقبله فطرتهم، فهو يحفّز عقولهم إلى التفكّر والتأمل في القضايا المشاهدة المحسوسة، لربطها بقضايا الإيمان الغيبية اليقينية التي لا تخضع للمدركات والحواس، وهذا هو مفرق الطريق بين المؤمن وغيره.

ثانياً: الاستدلال القرآني بتنوع أصناف النبات على عظمة الخالق عز وجل:

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ ﴾، (سورة الشعراء: الآيتان، ٧–٨)، هذا الاستدلال القرآني مما هو مركوز في الفطرة ومشاهد في الحياة، فكم لله من حكمة باهرة فيما تنبته الأرض من حبوب وثمار وأزهار وأشجار، متنوعة الأوراق والأغصان، وفواكه وخضر مختلفة الطعوم والأحجام والأشكال والألوان[1]، ومما يزيد معنى هذه الآية توضيحاً وتفسيراً قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ ۝٢٧ ﴾ (سورة فاطر: الآية، ٢٧)، أي إن الله تبارك وتعالى بقدرته وحكمته أنزل من السماء ماء فجعله سبباً لإحياء النباتات المختلفة في الأصناف والأجناس من الرمان والتفاح والتين والعنب والرطب ونحوها، والمختلفة في ألوانها في الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ ﴾ (سورة النحل: الآيتان، ١٠ – ١١).

(١) الناصري، محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م، (ط١)، ج ٤، ص٣٦٤.

إن إنبات النبات وتعدد أصنافه من زروع وثمار، إنما سخره للإنسان وأنعامه، حتى يقتاتوا عليه، ويتغذوا منه، ويشكروا الله تعالى الذي أنعم عليهم، وكذلك لترعوا مواشيكم السائمة في المرعى الواسع المعشب المخضرّ[(١)]، والأصناف المختلفة من النبات بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء، وعمود المعاش، وبه قوت أكثر العالم، ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاءٌ ودواءٌ، وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاء متكاملاً وفوائد أُخرى، ولأنها ينتفع بها زمنًا طويلًا، والمراد بالأعناب: ثمار العنب، ومجيئها بلفظ الجمع لتعدد أنواعها ومنافعها، ثم ختمت الآية الكريمة ما ذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ للإيذان بأن ما ذكر من قبل إنما هو بعض النعم، وأن خيرات الله تفوت الحصر[(٢)].

وهذه الآيات الكريمة تجلّي لنا المنهج الرباني الواضح في مخاطبة البشر، فهو منهج واضح تدركه العقول، وتتفاعل معه النفوس، من غير لُبس ولا تعقيد، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى واصفاً منهج القرآن الكريم: ليس في الأدلة أقوى ولا أظهر ولا أصح دلالة منه– أي القرآن الكريم – من وجوه متعددة جداً، كيف وقد أرشد ذوي العقول والألباب فيه إلى أدلة هي للعقل مثل ضوء الشمس للبصر لا يلحقها إشكال، ولا يغير في وجه دلالتها إجمال، ولا يعارضها تجويز واحتمال، تلج الأسماع بلا استئذان، وتحل من العقول محل الماء الزلال من الصادي الظمآن، فضْلها على أدلة أهل العقول والكلام كفضل الله على الأنام، لا يمكن لأحد أن يقدح فيها قدحاً يوقع في اللبس، إلا إن أمكنه أن يقدح بالظهيرة صحواً في طلوع الشمس[(٣)].

وقد بيّن الإمام الرازي في الآية السابقة أصلاً من أصول الاعتقاد، ألا وهو تفرّد الله تبارك وتعالى بالخلق، وتسخير الكون للإنسان، وفي الآية ردٌ على الدهرية، لأنه تعالى بيّن أن الماء واحد،

---

(١) الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، دمشق، دار الفكر، ١٤١٨ هـ، ط (٢)، ج ٢١، ص٢٢١.

(٢) مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: ج ٥، ص٥٩٧.

(٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بك، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ، (ط١)، ج ٣، ص١١٩٩.

والتراب واحد، ومع ذلك اختلفت الألوان والطعوم والروائح...وفيها ردٌ على المنجمين وأصحاب الأفلاك، حيث استدل بحركاتها وبكونها مسخرة، على طريقة واحدة على حدوثها، فأثبت سبحانه وتعالى بهذه الآيات أن كل ما في العالم مخلوق لأجل المكلفين(١).

ثالثاً: الاستدلال القرآني بجمال النبات وبهجته على عظمة الخالق تبارك وتعالى:

النبات بهجة للناظرين لما حباه الله عز وجلَّ من ألوان أخّاذة، وأشكال خلابة، تبعث الراحة والطمأنينة في نفوس الناظرين، وتشرح صدور المتأملين، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (سورة النمل: الآية، ٦٠)، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴿٢٧﴾﴾ (سورة فاطر: الآية، ٢٧)، وقال الله تبارك وتعالى:﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (سورة ق: الآيتان، ٧-٨).

هذه الآيات المباركة وغيرها تشخّص الأثر النفسي الذي يعود على الإنسان بعد إلقاء النظر والتأمل في جمال النبات، ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية، وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب، وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب.

ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك، فيه الدلالة القاطعة على أن الله جل وعلا واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده، وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار.

وأجناس النبات من الرمّان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها... واختلاف كل نوع بتعدد أصنافه كما في التفاح، فإن له أصنافاً متغايرة

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج ٣، ص٤٧٦، باختصار.

لذة وهيئة، وكذا في سائر الثمرات، ولا يكاد يوجد نوع منها إلا وهو ذو أصناف متغايرة، دليل على عظمة الخالق[١].

وقد أشار الإمام الزمخشري في الكشاف إلى أن هذه الآية المباركة وأمثالها تقرر أصلاً من أصول الإيمان والاعتقاد ألا وهو تفرّد الخالق عز وجل بالخلق إذ يقول: إنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال، مع حسنها وبهجتها بماء واحد، لا يقدر عليه إلا هو وحده[٢].

ومن خلال هذه الآيات الكريمة، نجد أن أسلوب القرآن ينوّع في الأدلة، ويعدد البراهين، بأكثر من صيغة، وفي العديد من الصور، كما هو واضح هنا، حيث ذكّر العباد بالماء النازل من السماء، وأثره في إنبات النبات، وأيُّ نبات؟ إنه النبات المتنوع في الشكل والألوان والثمار، والغرض من هذا التنويع، أن العقول البشرية متفاوتة في الفهم والإدراك، مختلفة في دقة التلقي والإدراك، وهنا يأتي هذا المنهج التربوي الفريد، ليغطي جوانب العقول والإدراك كلها، وعلى اختلاف درجاتها ومستوياتها.

المبحث الثالث: دلائل الخلق في الماء:

قال تعالى: ﴿ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ ﴾ (٦٨-٧٠: الواقعة).

تضمنت هذه الآيات الكريمة امتناناً ربانياً عظيماً على خلقه بالماء الذي يشربونه، وذلك آية من آياته الدالة على عظمته، وكمال قدرته، وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أخبروني أيها الناس عن الماء العذب الذي تشربونه لإطفاء العطش، أأنتم أنزلتموه من السحاب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا، فكيف لا تقرّون بالتوحيد، وتصدقون بالبعث؟ ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي لا عمل لكم في إنزال الماء أصلاً، فهو محض النعمة، ولو نريد لجعلناه ملحاً لا يصلح لشرب ولا زرع، فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً زلالاً، تشربون منه وتنتفعون به[٣].

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج ١٦، ص٣٩١.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٣٧٦.

(٣) انظر: الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج ٢٧، ص٢٦٩، وانظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٧، ص٥٣٤.

قال الإمام البيضاوي: مِنَ الْمُزْنِ: من السحاب واحده مزنة، وقيل: الْمُزْن السحاب الأبيض وماؤه أعذب...وأُجاجاً: ملحاً أو من الأجيج فإنه يحرق الفم، وحذف اللام الفاصلة بين جواب ما يتمحض لشرط وما يتضمن معناه لعلم السامع بمكانها، أو الاكتفاء بسبق ذكرها، أو يختص ما يقصد لذاته ويكون أهم وفقده أصعب بمزيد التأكيد، فلولا تشكرون أمثال هذه النعم الضرورية[1].

المطلب الأول: الاستدلال القرآني على أن الماء سبب الحياة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الأنبياء: الآية، ٣٠)، هذا نص قرآني واضح يدل على أن حياة الكائنات الحية متوقفة على الماء، ولا يمكن أن يكتب للحياة استمرار أو بقاء، دون الماء الذي أودع فيه الخالق تبارك وتعالى سرّ الحياة.

وفي الآية الكريمة يقول الإمام الواحدي: أي: وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء حي من الحيوان، ويدخل فيه النبات والشجر، يعني أنه سبب لحياة كل شيء، والمفسرون يقولون: يعني أن كل شيء فهو مخلوق من الماء، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ (سورة النور: الآية، ٤٥)، قال أبو العالية: يعني النطفة، وعلى هذا لا يتعلق هذا بما قبله، وهو احتجاج على المشركين بقدرة الله[2].

دورة الماء: للماء دورة متكررة بانتظام دائم بين السماء والأرض، جعلها الله عز وجل سبباً لاستمرار حياة الكائنات الحية، فقد أثبت العلم أن المطر هو نتيجة تبخر مياه المحيطات والبحار بحرارة الشمس، وارتفاع بخار الماء إلى طبقات الجو العالية الباردة، وتجمعها على شكل سحب تتكاثف ويسقط مطرها بالماء العذب على الأرض، وعندما يسقط المطر الغزير على الجبال والهضاب، فإنه ينحدر منها بشدة إلى السهول، مكوّناً فيها مجاري وأودية للأنهار التي تحيي الأرض وتنبت الزرع، ومن مياه الأمطار ما يتسرب إلى باطن الأرض مكوناً المياه الجوفية التي تتجمع في

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج ٥، ص١٨٢.

(٢) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ج ٣، ص٢٣٦.

أحواض واسعة للمياه الباطنية، التي تتفجر منها العيون وتنبثق منها الآبار بحسب تضاريس الأرض[١].

وعندما يتكثف الماء في الجو فإنه يبدو أولاً بشكل سحب، إذا كان في طبقة هوائية عالية، وبشكل ضباب إذا كان قريباً من الأرض، وتتألف السحب من قطرات مائية بالغة في الصغر، بحيث يمكنها العوم في الهواء والانجراف بواسطة تياراته، ولن يكون في وسع بخار الماء التكثف والتحول إلى قطيرات مرئية، إذا كان يحتويه هواء غاية في الصفاء والنقاء، إلا أن الهواء لا يخلو في الواقع من جزيئات الغبار والدخان والملح الناجم عن رذاذ مياه البحر، بحيث يقدر محتوى الأنش المكعب منه بالآلاف من هذه الجزيئات، التي تقوم بدورها بإحاطة نفسها بقطيرات من الماء تدعى هذه القطيرات "بنوى التكاثف"[٢].

فالمياه التي تتبخر من البحار والمحيطات والأنهار، تعود إلى الأرض مرة أخرى بإحدى طريقتين: الأولى سطحي، وهو الأغلب ووسائله الأنهار والجداول، التي تحمل مياه السطح لتصب في البحار، والثانية طريقة بطيئة وهي المياه الجوفي، أي بواسطة التسرب خلال مسامات طبقات الصخر، وقد جعل الله تبارك وتعالى الماء سبباً لاستمرار الحياة وانتعاشها، وهذه آية من آيات الله عز وجل، ودليل ناطق على عظيم قدرته تبارك وتعالى.

وقد عقد الطبيب موريس بوكاي في كتابه " القرآن الكريم والتوارة والإنجيل والعلم" مبحثاً بعنوان: " دورة الماء والبحار" وتحدث عن عملية تبخير أشعة الشمس للماء، ثم تشكيل السحب عن طريق التكاثف وعودته إلى الأرض ماء عذباً، ليشكل المياه السطحية والجوفية، ثم استعرض الآيات القرآنية

(١) محمد إسماعيل إبراهيم، القرآن وإعجازه العلمي، دار الفكر العربي – القاهرة، د.ت، ص ١٥٠، وانظر: محمد فياض، وأحمد خليل، الاستمطار، الكويت، دار سعادة الصباح الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص١٥، وانظر: مقيلي، محمد عياد، الطقس والمناخ، ليبيا، نشر الجامعة المفتوحة، ١٩٩٢، ص١٣٨.

(٢) فورس إيك، الطقس، ترجمة، نبيلة منسى، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨١، ص٤٩-٥٠، وانظر: أسرار الأرصاد الجوية الموسوعة العلمية المبسطة، ترجمة، عيسى طنوس، بيروت، دار الحقائق، ١٩٨٧، ط (١) ص٣٠.

الدالة على هذه الحقيقة العلمية، ليثبت التوافق الدقيق بين ما جاء في القرآن الكريم وما أثبته العلم الحديث[١].

وقد بيّن القرآن الكريم أن **حياة الإنسان** لا بد لاستمرارها من الماء، ليشرب منه ويرتوي، قال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ[٢] فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة الحجر: آية، ٢٢)، فالله تبارك وتعالى بكرمه هو الذي أنزل الماء من السماء فسقى منه الإنسان ورواه، و(الفاء) هنا لبيان أن ما بعدها سبباً لما قبلها، أي أنه بسبب هذه الإثارة التي أثارتها الرياح أنزل سبحانه وتعالى الماء من السماء، ليسقي الزرع والغراس، والأعشاب التي يكون منها طعام الإنسان والحيوان، وكل ما يدب على ظهر الأرض.

والسببية هنا ليست سببية فاعلة أو باعثة إنما هي سببية اقتران، و(جعل)، أي جعل الله تعالى هذا سبباً ﴿ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ ﴾[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَسۡقَيۡنَٰكُمۡ مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة المرسلات: الآية، ٢٧)، أي عذباً، وذلك بأن خلقناه في أصولها، وأجريناه لكم منها في أنهار، وأنبعناه في منابع تستمد مما استودعناه فيها[٤].

وكذلك **حياة الحيوان** لا تستمر دون الماء، قال تعالى موضحاً ذلك: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة الفرقان: الآية، ٤٨)، فقد دلت الآية على أن الله تبارك وتعالى أنزل من السحاب ماء طهوراً، والطهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، فهو يطهر الإنسان طهارة حسية بإزالة الأنجاس الحسية، وطهارة معنوية بالاغتسال والوضوء.

---

(١) بوكاي، مورس، القرآن الكريم والتوارة والإنجيل والعلم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ط (١) ص ٢٠٥.

(٢) ذهب بعض المفسرين في تفسير: (لواقح) إلى معنيين: الأول: تلقيح الأشجار، والثاني: تلقيح الرياح للسحب لإثارتها وإنزال الماء. انظر: الطبري، جامع البيان، ج ١٤، ص٤٥.

(٣) أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، ج ٨، ص٤٠٨١.

(٤) الألوسي، روح المعاني، ج ١٥، ص١٩٤.

كما أن هناك علاقة **حيوية بين الماء والنبات**، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العلاقة الوطيدة في العديد من الآيات القرآنية الكريمة، يقول تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾ ،(سورة ق: الآيتان، ٩-١٠).

أي إن هذا الماء الذي يهمي من السماء، جعله الله تعالى سبباً لإنبات النبات، وسريان الحياة في النبات، وما يثمر بعد ذلك من ثمار وحبوب وزروع، وما يشكل من بساتين خضراء تبهج النفوس، وتشرح الصدور، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾ ،(سورة الحج: الآية، ٦٣).

المطلب الثاني: طلاقة القدرة الإلهية في إذهاب الماء وتحويل أوصافه:

وذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الواقعة: الآية، ٧٠)، أي لو نشاء جعلنا الماء مالحاً مرّاً لفعلنا، فلا تنتفعون به في شرب ولا غرس ولا زرع، غير أننا جعلناه عذاباً سائغاً للشاربين رحمة بالعباد كي يشكروا خالقهم عز وجل.

وقد أورد الإمام الرازي في تفسيره الكبير معنيين للماء الأجاج:

الأول: هو الماء المرّ من شدة الملوحة.

الثاني: هو الحارّ من أجيج النار كالحطام من الحطيم... ثم قال: ذكر تعالى في الماء الطيب صفتين: إحداهما عائدة إلى طعمه، والأخرى عائدة إلى كيفية ملمسه وهي البرودة واللطافة، وفي الماء الآخر أيضاً صفتين: إحداهما عائدة إلى طعمه، والأخرى عائدة إلى كيفية لمسه وهي الحرارة[١].

يقول ابن عاشور في " التحرير والتنوير" ما نصه: فإن قيل: لمَ أكد الفعل باللام في الزرع ولم يؤكد، في الماء؟ قلت: لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاماً، مما يحتمل أنه من فعل الزارع أو أنه من سقي الماء، وجفافه من عدم السقي، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك على الحقيقة، وأنه قادر على جعله حطاماً في حال نموه لو شاء، وإنزال الماء من السماء مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه غير الله تعالى[٢].

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٩، ص٤٢٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ ج ٢٧، ص٣٢٥.

وما أشارت إليه الآية الكريمة من بيان قدرة الله جل جلاله في تحويل الماء العذب الفرات إلى ملح أجاج، جاء بيانه في غير موضع من القرآن الكريم، ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، (سورة المؤمنون: الآية، ١٨)، يقول الشنقيطي: لأن الذهاب بالماء وجعله غوراً لم يصل إليه وجعله أجاجاً، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى(١).

وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الملك: الآية، ٣٠)، ففي الآية تهديد بإذهاب الماء في الأرض وعدم الانتفاع به، وغَوْراً: أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدلاء، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أي ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء، قال ابن عباس: معين: أي جار، والمقصود من الآية أن يجعلهم مقرّين ببعض نعمه عليهم، ويريهم قبح ما هم عليه من الكفر، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض، فمن يأتيكم بماء معين، فلا بد أن يقولوا هو الله تعالى، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية فهذا محال!(٢).

وهذا يدل على أن الماء هو نعمة من نعم الله تعالى تنتفع بها الخلائق، وقد يذهب الله عز وجل الماء في باطن الأرض عقوبة لمن أعرض عن منهجه ودينه، وقد يحول الخالق سبحانه وتعالى بقدرته الماء إلى نقمة وبلاء تحيط بالمجرمين، وهذا الذي قصّه علينا خالقنا تبارك وتعالى في قصة هلاك فرعون، وقوم عاد، وطوفان نوح عليه السلام، قال تعالى:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة القمر: الآيات، ٩-١٦).

(١) الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٧، ص٥٣٤.

(٢) الخازن، علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ، (ط١)، ٤، ص٣٢١.

ومع تطور وسائل الاتصال المعاصرة، أصبحنا نشاهد بأمّ أعيننا الفيضانات المدمرة، والأعاصير الجائحة التي تهلك الحرث والنسل، وتدمر البيوت والمصانع، وتقتلع الأشجار... ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تلبّدت السماء بالغيوم تغيّر وجهه، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها كما جاء في البخاري: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: "يا عائشة ما يُؤْمِنُنِي أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا "[(١)]، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول: إن الريح من روح الله، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فلا تسبُّوها، وسلوا الله من خيرها، واستعيذوا بالله من شرها"[(٢)].

المبحث الرابع: دلائل الخلق في الشجر والنار:

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾ ،(سورة الواقعة: الآيات، ٧١-٧٤).

انتقلت السورة الكريمة إلى الدليل الرابع من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية، التي هي في متناول البشر وتقع تحت مشاهدتهم، وذلك في سياق طلاقة قدرة الله عز وجل على تقرير البعث والنشور.

ومناسبة الانتقال من الاستدلال بخلق الماء إلى الاستدلال بخلق النار... هي أن النار تخرج من الشجر بالاقتداح، وتذكى بالشجر في الاشتعال والالتهاب، وهذا استدلال على تقريب كيفية الإحياء للبعث، من حيث إن الاقتداح إخراج، والزند الذي به إيقاد النار يخرج من أعواد الاقتداح وهي ميتة[(٣)].

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ، (ط١) كتاب تفسير القرآن، باب فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم، حديث رقم (٤٨٢٩) ومسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، حديث رقم (٨٩٩).

(٢) ابن حبان، صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، (ط١)، باب: ذكر الزجر عن سب الرياح، إذ الرياح ربما أتت بالرحمة حديث رقم (٥٧٣٢) قال المحقق: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير ثابت بن قيس الزرقي، وهو ثقة روى له أصحاب السنن، صححه الحاكم ووافقه الإمام الذهبي، وأبو دواد، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحمد كامِل قره بللي، بيروت، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، (ط١) كتاب الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريحُ، حديث رقم (٥٠٩٧) وصححه المحققان.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص٣٢٥.

والمعنى: أفرأيتم النار التي تستخرجونها بالقدح من الزناد، أأنتم أنشأتم شجرتها التي كانوا يقدحون منها النار، أم نحن المنشئون لها بقدرتنا دونكم؟ وكان للعرب شجرتان يقدحون بهما النار وهما (المرْخ والعفار) بأن يؤخذ منهما غصنان أخضران، ويحك أحدهما بالآخر، فيتناثر من بينهما شرر النار، ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي نحن جعلنا هذه النار تذكركم حر نار جهنم الكبرى، ليتعظ بها المؤمن، ونفعاً للمسافرين وأهل البادية النازلين في الأراضي المقفرة[1].

المطلب الأول: الاستدلال بإخراج النار من الشجر:

من دلائل عظمة الخالق تبارك وتعالى أنه أخرج النار من الشجر الأخضر، أي أخرج الشيء من ضده، فمن الشجر الغض الطري الذي يسري فيه الماء، يخرج الله تعالى النار المحرقة الملتهبة، والذي يفعل هذا قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة.

وفي هذا بيان على طلاقة القدرة الإلهية، أي إنه قادر على إيجاد المسبَّبات بسبب أو من غير سبب، فالنار تحرق بإذنه سبحانه وتعالى، إذا شاء ربنا جل جلاله سلب منها خاصية الإحراق، فتحولت النار إلى برد وسلام، كنار إبراهيم –عليه السلام– قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾، (سورة الأنبياء: الآية، ٦٩).

وفي هذا السياق يذكر الله تبارك وتعالى الدليل في سورة يس على إثبات البعث والنشر عقب الموت، من خلال مناقشة المشككين في البعث، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (سورة يس: الآية، ٨٠).

فقد نبّه سبحانه وتعالى على وحدانيته ودلل على قدرته، وذلك بإحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار، إذا قطع منهما عودان، وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران، فإذا أنتم منه توقدون أي: تقدحون منه النار وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر[2].

(١) الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج ٢٧، ص٢٧٠.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص٤٤٠.

﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فمن كان قادرًا على هذا، كيف لا يقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضًّا فيبس! قيل معناه: الذي بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا يوقد به النار، قادر كذلك على كل شيء[١].

وهذه الطريقة البدائية التي كانت تستعمل إلى عهد قريب في المناطق النائية في أصقاع الأرض، تدلل على بديع القدرة الربانية في إخراج الشيء من ضده، في واقع مشاهد محسوس لا يخطئه بصر ولا يغيب عن بصيرة أولي الألباب.

إن الأمي يفهم من هذه الآيات أن الله خلق الشجر الأخضر بقدرته، وجعل فيه قابلية للاحتراق لنستفيد منه في الطبخ والتدفئة والاستضاءة ولولا تسخير الله، لذلك ما استفدنا منه، فيجب شكره وعبادته، وإن العلماء ليحدثونا اليوم عن الطاقة المخزونة في الأرض بشكل فحم حجري أو نفط، والتي ترجع بأصلها إلى الأشجار المدفونة، وإمكانية توليد صور أخرى من النار كالكهرباء التي تستعمل فيما تستعمل به النار تمامًا، هذا الفهم لا يتنافى مع الآية، بل ويجلي النعمة على الناس بشكل أوضح مما يوجب عليهم الاعتراف بوحدانية المنعم وعبادته[٢].

وفي سياق الاستدلال بإخراج الشيء من ضده – أي بإخراج النار من النبات — فقد استدل القرآن الكريم على إخراج النار من الماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ ﴾ (سورة الطور: الآية، ٦) فالآية صريحة بأن أرض البحار مسجرة بالنيران، وهذا القسم والتوكيد على أن البحر مسجور، سيق في معرض الحديث على دلائل قدرة الله وعظمته، فهو حديث عن بحر مسجر في الدنيا، وللعلماء في تفسير كلمة (المسجور) أقوال من أبرزها: أن المسجور يعني الموقود أو المملوء، وقد جمع بعض هذه الأقوال الإمام البيضاوي رحمه الله إذ يقول: والبحر المسجور أي المملوء وهو المحيط، أو الموقد، وروي أنه تعالى يجعل يوم

(١) الإيجي، محمد بن عبد الرحمن، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م، (ط١)، ج ٣، ص٤٣٤، وانظر:إبراهيم، محمد إسماعيل، القرآن وإعجازه العلمي، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت، ص١٥٥.

(٢) محمد، أحمد محمد، وملكاوي، عبد القادر خليل، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، الرياض، مكتبة دار الزمان، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، (ط١)، ص٣٣٩.

القيامة البحار ناراً، يسجر بها نار جهنم، أو المختلط من السجير وهو الخليط[١]، وجاء في مختار الصحاح: سجر التنور أحماه، وسجر النهر ملأه، ومنه ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ والسجور: بالفتح ما يسجر به التنور[٢].

إذن يتضح لنا من هذا الكلام، أن المقصود بالمسجور هو الموقد أو المهيج بالنار أو المملوء، وقسم الله سبحانه وتعالى هذا فيه دلالة صريحة على وجود بحار مسجرة بالنيران، إذ أن المقصود بالبحر المسجور هنا هو من بحار الدنيا وليس الآخرة، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تتجلى هذه الحقيقة القرآنية في عصر العلم، ويصل علماء البحار إلى التأكد الجازم من وجود براكين ملتهبة بالنار في القيعان[٣].

يقول الدكتور جمال الدين الفندي في كتابه «طبيعيات البحر وظواهره»: أثبتت الدراسات أن في قشرة قاع المحيط يوجد بعض الثغرات أو الشقوق العميقة، نتيجة التصدع بتقلصات القشرة لإحداث التوازن واختلافات الحرارة، وما يتبع هذه الاختلافات من تمدد بالتسخين وتقلص بالبرودة، وعلى طول مثل هذه الأماكن المتمددة الضعيفة، تندفع الحمم البركانية المنصهرة من باطن الأرض من خلال قشرة القاع ثم تنبثق متدفقة في البحر، إلا أنها تلقى مقاومة بسبب ثقل مياه البحار[٤].

وعقد جورج جامو[٥]فصلاً في كتابه « كوكب اسمه الأرض» تحت عنوان:جهنم تحت أقدامنا، وتحدث فيه عن تسجير قاع البحر، والنار والبراكين النشطة فيه، يقول: ازدياد الحرارة مع العمق: إن

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٥/٢٤٥.

(٢) الرازي محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، تحقيق، محمود خاطر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥، ج١، ص ١٢١.

(٣) انظر كتابنا: شعبان، مروان وحيد، الظواهر الجيولوجية في القرآن الكريم، دار الإعجاز، لبنان، ٢٠١٠، ط (٢) ص ٢٥٦.

(٤) الفندي محمد جمال الدين، طبيعيات البحر وظواهره، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص٢١٠، وانظر: روبرت كاون البحار وما فيها، ترجمة: عبد الحافظ حلمي القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٤، ص١١٧.

(٥) (جورج جامو، ١٩٠٤-١٩٦٨، الأمريكي الروسي الأصل، مؤسس نظرية الانفجار الكبير لنشوء الكون، وصاحب المصطلح الذي أصبح الآن من أكثر الفرضيات إثارة للجدل في تاريخ العلم، وتنبأ بوفرة عنصر الهيليوم، وبانتشار الأشعة الباردة). انظر: خشبة، سامي، مفكرون من عصرنا، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ط(١) ١٤٢٢هـ/٢٠٠١، ص٣١١.

سحب الدخان الأسود المتصاعد من فوهات البراكين الثائرة، والحمم الملتهبة المتدفقة على جوانبها، وعيون المياه الساخنة، كل هذا دعا الأقدمين إلى الاعتقاد بوجود نار متقدة ليست بعيدة تحت أقدامنا أعدت للخاطئين[١].

المطلب الثاني: عِظةُ النار:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾، (سورة الواقعة: آية، ٧٣)، أي إن نار الدنيا تذكّر بنار الآخرة نار جهنم الكبرى، ونار الدنيا حين تستعر ترتعد لها الفرائص وتخفق لهولها القلوب، وإذا اشتدت أتت على الأخضر واليابس، فكيف بنار جهنم والعياذ بالله تعالى!.

ولذلك فإن القلوب اليقظة، والنفوس المتبصرة إذا رأت اشتعال النار في الدنيا واتقاد أوارها، تحرّكت مشاعر الخوف والإخبات فيها لأنها تذكرت نار جهنم، وربطت صورة مشاهدة حية متحركة، بصورة غيبية يتداخل فيها حشد من ألوان العذاب والنكال والعياذ بالله، وهذا أسلوب قرآني تربوي، ينهض بالنفس البشرية بجوانب الترهيب إلى جوانب الترغيب، كي يزكيها ويهذبها.

جاء في تفسير "فتح البيان": أي لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به، قال مجاهد وقتادة: تبصرة للناس في الظلام، وقال عطاء: موعظة ليتعظ بها المؤمن وقال ابن عباس: تذكرة للنار الكبرى[٢].

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: «ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»، قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية قال: «فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهنّ مثل حرها»[٣].

---

(١) جامو جورج، كوكب ا سمه الأرض ترجمة، الدكتورة هذارة، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٤، ص٧٤.

(٢) القنّوجي، فتح البيان، ج ١٣، ص٣٧٩.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٢٦٥).

يعلق الإمام القسطلاني في "إرشاد الساري" على الحديث النبوي الآنف فيقول: نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب نار جهنم بها وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها هربًا مما هم فيه[1].

المطلب الثالث: منافع النار:

للنار في الدنيا منافع كثيرة، وقد كان اكتشاف النار حدثاً كبيراً في تاريخ البشرية، لما لها من منافع جمّة ترتد على الناس في حضرهم وظعنهم، حيث يحتاج الناس إليها في طهي الطعام، والتدفئة، والإنارة، والحماية من الحيوانات المفترسة والحشرات، وغير ذلك من الفوائد التي استفاد منها الإنسان قديماً، وحديثاً كذلك في أدق الاستخدامات التكنولوجية والصناعية المعاصرة، وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى بعض هذه المنّة الإلهية في الآية الكريمة فقال: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾.

وكنّا قد أشرنا قبل قليل إلى معنى ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ قال بعض أهل التأويل: أي متاعاً للمسافرين، وخص المسافرين، لنزولهم القواء، وهو القفر... وقيل: المقوين: المستمتعين... وقيل: الذي يقع في أرض قواء، والقواء: الأرض الخالية من الناس[2].

ولعل تخصيص المقوين بذلك، لأن حاجتهم إلى اقتداح النار بالزناد أكثر من المقيمين، الذي يوقدون النار في وسائل أيسر من الاقتداح بالزناد والله أعلم.

وقد أشار إلى الإمام الواحدي في تفسيره الوسيط إلى معنى الآية الكريمة، مبيناً طرفاً من منافع النار وفوائدها يقول: المقوي: الذي ينزل بالقوى وهي الأرض الخالية، والمعنى: ينتفع بها أهل البوادي والأسفار، النازلين في الأرض القي، ومنفعتهم بما بها أكثر من منفعة المقيم، وذلك أنهم يوقدونها ليلًا لتهرب منهم السباع، ويهتدي بها الضال من الطريق، وقال عكرمة، ومجاهد: للمقوين: للمستمتعين بها من الناس أجمعين، المسافرين والحاضرين، يستضيئون بها في الظلمة، ويصطلون من البرد،

(١) القسطلاني، أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣ هـ، (ط٧)، ج ٥، ص٢٨٩.

(٢) انظر: الماتريدي، تفسير الماتريدي، ج ٩، ص٥٠٤.

وينتفعون بها في الطبخ والخبز[١]. وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى:﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي نزّه ربّك العظيم الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، فخلق الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار والمحيطات، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد ومنفعة لهم في معاشهم، وزجراً لهم في المعاد، وفائدة هذا أنه تعالى لما ذكر حال المكذبين بالحشر والوحدانية، وذكر الدليل عليهما بالخلق والرزق، ولم يفدهم الإيمان، أمر الله نبيّه بأن يعنى بوظيفته وهي إكمال نفسه، بعلمه بربّه، وعمله لربّه[٢].

الخاتمة:

في ختام هذا البحث، أوجز خلاصة المحاور الذي تناولتها، ثم إلى أشير إلى أبرز النتائج التي توصلت إليها فيما يلي:

في المبحث الأول تحدثت عن دلائل خلق الإنسان وبعثه، وتعرّضت للمنهج القرآني في قضية الخلق والبعث، والمسالك التي يسلكها في إقناع المشككين والمنكرين، وكان من أبرز هذه المسالك منهج القياس العقلي في القضايا الكونية المحسوسة المشاهدة، على عوالم الغيب وإثباتها.

وجاء المبحث الثاني للحديث عن دلائل الخلق في الحرث والزرع، حيث أشرت إلى الفرق بين مصطلحي الحرث والزرع في القرآن الكريم، ثم تحدثت عن الاستدلال القرآني في النبات على عظمة الخالق تبارك وتعالى، مبيناً الأسلوب القرآني المتفرّد في الإقناع وسوق البراهين على طلاقة القدرة الإلهية.

وفي المبحث الثالث تعرّضت للحديث عن دلائل الخلق في الماء، وبيّنت أن الماء هو أساس الحياة كما ذكر ذلك القرآن الكريم، وأومأت إلى أن المياه هي من النعم الجليلة التي أنعم الله بها على

(١) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ج ٤، ص٢٣٨.

(٢) الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج ٢٧، ص٢٧٠.

الكائنات، وأن الله عز وجل إن شاء حوّل هذه النعمة إلى نقمة وعذاب، حين يعرض الناس عن منهجه في الحياة.

أما في المبحث الرابع والأخير، فقد جاء للحديث عن دلائل الخلق في الشجر والنار، حيث أشرت إلى عظمة الخالق تبارك وتعالى في إخراج الشيء من ضده، وهنا إخراج النار من الشجر الأخضر، كما بيّنت منهج القرآن الكريم في ذكر النار على أنها من وسائل التربية في ضبط سلوك الناس وعدم انحرافهم عن شرع الله تعالى، وذلك من خلال تخويفهم بها كي لا يقعوا في المهلكات والمحرمات، ثم أشرت إلى أن للنار كذلك منافع متعددة في قديم الزمان وحديثه، وأشرت إلى بعض صور هذه المنافع.

أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

١- ضرورة التركيز على الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم، وأن هذا الميدان خصب للباحثين والدارسين، كما له أثر كبير في الدعوة والتربية والتعليم.

٢- الاهتمام في دراسة الأساليب القرآنية، حيث أظهرت الدراسة أن القرآن الكريم يسلك أساليب تتوافق وتتلاءم مع العقل والفطرة البشرية، في إطار عرض الأدلة ونصب البراهين للإقناع ودحض الشكوك والشبهات.

٣- توصلت الدراسة إلى قضية ربط المشاهد المحسوسة بالعوالم الغيبية، للتدليل على القدرة الإلهية في الخلق والإيجاد، وذلك من خلال ما عرضته الآيات المباركة من مشاهد متعددة يراها الناس بأعينهم، ثم ربط ذلك بعالم الغيب وعظيم قدرة الخالق عز وجلّ في إعادة البعث والنشور، كاستدلال القرآن العظيم على خلق

الإنسان وتسويته من ماء مهين، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الزروع والثمار، وإخراج النار من الشجر الأخضر، وربط كل هذه الصور الحسية المشاهدة بعالم الغيب، ثم التأكيد على تفرّد الله تبارك وتعالى بالخلق والإيجاد، وهذا منهج قرآني مضطّرد في هذا السياق.

٤- الإشارة إلى قوانين الحياة وما تعارف عليه الناس وألِفوه، وأن هذه القوانين ليس بمقدور البشر التحكم بها، بل هي مما سخرها لهم الحق عز وجل بفضله وكرمه، وهي من عجائب القدرة الإلهية، وذلك كإنزال الماء العذب الزلال من السحب وأثره في بهجة الحياة.

٥- التدليل على أن النعم قد تنقلب إلى وبال ونقم، وذلك إذا تنكّب العباد مسلك الحق والإيمان، كتحويل الماء العذب الرقراق إلى فيضانات جائحة وسيول جارفة لا تبقي ولا تذر، وهذا منهج قرآني في تربية النفس وضرورة زرع المراقبة فيها.

٦- التنبيه في كل مباحث البحث إلى عظمة الخالق وقدرته في خلقه، وبالتالي إلى ضرورة التوجه والالتجاء إليه سبحانه وتعالى، والخضوع له وإفراده بالدينونة والعبادة.

٧- التدبر والتفكّر في الخلق يزيد من الإيمان، ويرسخ الاعتقاد بعظمة الخالق، كالتفكر بخلق الإنسان، والماء، والنبات، والنار، وغيرها من المخلوقات.

٨- أسهم البحث في إضافة دراسة موضوعية جديدة، في سلسلة الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم.

وختاماً أسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يمنّ علينا بالإخلاص في القول والعمل، وأن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم، وأن يغفر لنا الزلات، ويتقبل الصالحات، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانياً: الكتب التالية:

١. إبراهيم محمد إسماعيل، القرآن وإعجازه العلمي، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

٢. ابن حبان، صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، (ط١).

٣. ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ ج ٢٧، ص٣٢٥.

٤. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ، (ط١).

٥. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، (ط٢).

٦. أبو دواد، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحمد كامِل قره بللي، بيروت، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، (ط١).

٧. الأزدي أبو بكر محمد بن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق، رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، (ط١).

٨. الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، دار القلم، ١٤١٢ هـ، (ط١).

٩. الأنصاري زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، (ط١).

١٠. الإيجي محمد بن عبد الرحمن، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، (ط١).

١١. البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ، (ط١).

١٢. بوكاي، مورس، القرآن الكريم والتوارة والإنجيل والعلم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ط (١).

١٣. جامو جورج، كوكب ا سمه الأرض ترجمة، الدكتورة هذارة، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٤.

١٤. الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٢ هـ، (ط١).

١٥. الخازن علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ، (ط١).

١٦. خشبة، سامي، مفكرون من عصرنا، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ط(١) ١٤٢٢هـ/٢٠٠١.

١٧. الرازي أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٨. روبرت كاون البحار وما فيها، ترجمة: عبد الحافظ حلمي القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٤.

١٩. الزحيلي وهبة، التفسير المنير، دمشق، دار الفكر، ١٤١٨ هـ، ط (٢).

٢٠. السعدي عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م، (ط١).

٢١. شعبان، مروان وحيد، الظواهر الجيولوجية في القرآن الكريم، دار الإعجاز، لبنان، ٢٠١٠، ط (٢).

٢٢. الشوكاني محمد بن علي بن عبد الله، فتح القدير، دمشق، دار ابن كثير، ١٤١٤ هـ، (ط١).

٢٣. الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، (ط١).

٢٤. الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، بيروت، دار ومكتبة الهلال.
٢٥. الفندي محمد جمال الدين، طبيعيات البحر وظواهره، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠،
٢٦. فورس إيك، الطقس، ترجمة، نبيلة منسى، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨١.
٢٧. الفيروز آبادى مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.
٢٨. القاسمي محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ، (ط١).
٢٩. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، (ط٢).
٣٠. القسطلاني أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣ هـ، (ط٧).
٣١. القِنَّوجي أبو الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، تحقيق: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، صيدا، المكتبة العصرية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.
٣٢. الماوردي علي بن محمد بن حبيب البصري، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
٣٣. مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م – ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م، (ط١).
٣٤. محمد أحمد محمد وملكاوي عبد القادر خليل، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، الرياض، مكتبة دار الزمان، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، (ط١).

٣٥. محمد بن محمود الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، (ط١).

٣٦. محمد فياض، وأحمد خليل، الاستمطار، الكويت، دار سعادة الصباح الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

٣٧. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، تحقيق، محمود خاطر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥.

٣٨. المراغي أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، (ط١).

٣٩. المرسي أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، (ط١).

٤٠. مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٤١. مقيلي، محمد عياد، الطقس والمناخ، ليبيا، نشر الجامعة المفتوحة، ١٩٩٢.

٤٢. الموسوعة العلمية المبسطة، أسرار الأرصاد الجوية، ترجمة، عيسى طنوس، بيروت، دار الحقائق، ١٩٨٧، ط (١) .

٤٣. الناصري محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، (ط١).

٤٤. الهروي محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، (ط١).